

النزعة الإيمانية في الفلسفة الغربية المعاصرة/ ج (1)



يقدم الكاتب من خلال هذا النص كيفية معالجة فلاسفة الغرب لموضوعة الإيمان، وهو قد أخذ الفيلسوفين كريكغارد وفيتغنشتاين كأمثلة من تلك البيئة الثقافية واختيار الكاتب لم يكن عشوائياً إذ أن أحدهما قد عرف بإيمانه وتأسيسه للوجودية بينما إن الآخر عرف بنزعتها اللادينية ومساهمته في تأسيس الوضعية المنطقية.

غالباً، لم يكن المراد بالبراهين التقليدية على وجود الله تلك الأدلة المستخدمة لإقناع الملحدين بوجود الخالق، وإنما كان ينظر إليها بصفاتها جزءاً من منظومة شاملة سمّاها القديس توما الأكويني: "الإيمان الباحث عن الفهم". ومع تصاعد اعتراضات أنصار "أصالة الشواهد"، طرحت هذه البراهين كشواهد إيجابية لوجود الله يمكن الإتيان عليها. ولمّا كان الدليل القياسي غير معتبر إلا إذا أضمرت مقدماته المعلومات الموجودة في نتائجه، فقد زعم الكثير من الفلاسفة أن هذه البراهين لا يصحّ أن تُعد شواهد وقرائن على وجود الله. لأن وجود الله مفترض الصحة مسبقاً في مقدمات هذه البراهين. وحتى لو فرضنا أن البراهين التقليدية عاجزة عن أن تمثل شواهد وافية لإقناع الملاحدة العقليين بوجود الله. حينئذ لن نعدم أدوات دفاعية لصالح المعتقدات الدينية يمكن استخدامها للردّ على اتباع أصالة الشواهد.

ومن هذه الردود التي تبوّأت موقعاً مهماً في الولايات المتحدة الأمريكية خلال السنوات الأخيرة ما

أطلقه "بلانتينجا" و"آلستون". هؤلاء يجارون اتباع مدرسة الشواهد في اعتراضاتهم، ويسعون في الوقت ذاته إلى إثبات تهاافت الأنماط التقليدية للنزعة المبنائية، وإلى إثبات إمكانية تسويغ الأفكار التوحيدية بمعونة تجارب دينية مألوفة تماماً في إطار مبنائية مشدّبة، أو القول إنّ هذه الأفكار عقلانية؛ لأنّه بالإمكان اعتبار المشاهدات الدينية محوراّ وأساساً في المنظومات العقيدية. وكنت قد أشرنا في مناسبات سابقة إلى أنّ هذه المقاربات رغم جدارتها بالبحث والدراسة نظراً لما توفره لنا من رؤى ابستمية قيمة، بيد أنّها عاجزة عن مناهضة اتباع أصالة الشواهد.

الردود الأخرى التي جوبهت بها أصالة الشواهد تضم استخدام شواهد ناجمة عن تجارب دينية مثيرة، وشواهد ناتجة عن معاجز، وأطروحات تسويغية للبراغماتيين والإيمانين.

الموضوع الذي اخترناه لدراستنا الحالية نمط من النزعة الإيمانية لعلها الأشهر بين المتكلمين وفلاسفة الدين في أمريكا.

الواقع أنّ "الإيمانية" ليست على الإطلاق سعيّاً لمواجهة أصالة الشواهد، وإنما هي دحض لرؤية الشواهديين حيال التفكير الديني. الإيمانيون يوافقون الشواهديين في أنّ الدعاوى والأفكار الدينية لا تكون عقلانية إلا إذا اندرجت بنحوٍ ما ضمن الأطار الابستمى للمبنائين. ولكن في مرحلة لاحقة، وبدل التدليل على محوريّة الدعاوى الدينية، أو كونها مسوّغة استناداً إلى دعاوى تجريبية أخرى، أو أنها ثابتة بصورة ما تقدم، يذعن الإيمانيون صرفاً بأنّ الدعاوى التوحيدية ليست عقلانية. نعلم أنّ المبنائين الكلاسيكيين من قبيل: جون لوك يحاولون تكريس أنّ كل ما ليس عقلانياً فهو مرفوض وباطل. يزعم لوك أنّ الاعتقاد بحكم غير عقلائي علامة وهن وانحطاط. هنا ينتفض الإيمانيون مؤكدين أنّ ثمة معايير أعلى من معايير العقل يجب استخدامها لتقييم الأحكام، وهي كفيلة بالافصاح عن قيمة التعاليم الدينية حتى لو تعارضت والمعايير العقلية.

هناك نمطان من النزعة الإيمانية تغلب باقي الأنماط لدى فلاسفة الدين الأمريكيين اليوم. نمط يستخلص من مؤلفات سورين كيركغارد Kierkegaard (1813-1855)، وآخر يُستمد من أفكار لودفيك فيتغنشتاين. وتضاعفها كريكغارد الدنماركي لأفكار لاّ أو ولنعرض Wittgenstein (1889-1951).

- أطروحات كيركغارد:

يرى القديس توما الأكويني أنّ للإيمان منزلة شامخة، إلا أنها دون منزلة العقل، وتعاليم الكنيسة التي لا يمكن إثبات صدقها بالعقل. يجب أن تؤخذ على أساس الإيمان تعبّداً، فهو يعتقد أنّ على الإنسان استخدام عقله ما أمكنه ذلك، وإذا لم يجد دليلاً عقلياً، له أن يعتمد الإيمان. بينما يذهب كريكغارد إلى خطأ ترجيح العقل على الإيمان، فهو يرى أنّ الإيمان أسمى الفضائل، وما يكّرس إنسانية الإنسان هو الإيمان دون العقل. ويتمادى في نظريته هذه إلى درجة انتقاصه من المعرفة الماورائية وإدانيتها، بذريعة أنها عقبة في طريق السعي، والجهد المقترن بعدم الاطمئنان، والضروري جدّاً للتكامل الروحي.

تتشعب ردود كريكغارد على الشواهديين ومعارضتهم للبراهين التوحيدية إلى قسمين:

أوّلًا: هو ينكر إمكانية الرد عليهم بلغتهم، ومفرداتهم ومفاهيمهم. فمن وجهة نظره، لا يمكن برهنة المعتقدات الدينية بالميكانيزمات (الآليات) العقلية.

وثانيًا: حتى لو أمكن ذلك، فالأفضل صيانة المعتقدات الدينية بواسطة الإيمان، وبدون الاستعانة بالعقل. وفق هذه الرؤية لا يكون الإيمان أرقى درجة من العقل وحسب، وإنما يتبدّى في مواجهة حقيقية مع العقل. يرى كريكغارد أنّ الإيمان ليس أسمى من العقل فقط، بل إنّ العقل يمنع التجلي التام للإيمان وممارسة نشاطه.

الإيمان واليقين غير متلائمين في فلسفة كريكغارد. ولمّا كان سبيل النجاة والفلاح متمثلاً بالإيمان الانفعالي المطلق، لذا ينبغي اجتناب اليقين حتى لو أمكن حصوله. فحينما تتوفر الأدلة الكافية لاتخاذ قرار حول موضوع ما، لا تعود ثمة حاجة إلى العزم والإرادة. بينما الالتزام المنفعل لا يتأتّى إلا باستخدام الإرادة؛ ولهذا بالذات يقتضي عدم كفاية الشواهد. إنّ تعريف كريكغارد للحقيقة، - والذي كثيرًا ما يذكر ويتداول -، هو: عدم يقين آفاقي نلتصق به أثناء عملية القبض على أعنف أنواع السير الباطني وأكثرها انفعاليًا وحرارة. وفي أحيان أخرى يشير كريكغارد إلى هذه النقطة بلهجة أكثر تطرفًا فيقول: "ليس الدين عدم يقين آفاقي وحسب، بل يجب أن يكون عدم يقين لا معقولاً. عندما تتجلّى لا معقولة الدين بوضوح أكثر، يلزم الإنسان أعنف الجهود لكي يؤمن. ويربط كريكغارد بين بذل هذه الجهود السامية من قبل الإرادة للتوافر على الإيمان، وبين الانفعال، والحرارة اللامتناهية الضرورية للفلاح. يقدم كريكغارد أدلته على الاعتقاد بأنّ الانفعال الديني يقتضي أن لا يكون معقولاً من الناحية الآفاقية، ولا مبرر له موضوعيًا، ونذكر من هذه الأدلة ثلاثة: المخاطرة، والثمن، والإرادة.

يؤكد هذا الفيلسوف الدنماركي أنّّه لا إيمان من دون تقبّل أخطار. وبالمستطاع إجماع أهمية هذه الفكرة عن طريق مثال: افتراض أن حبيبك على وشك الموت، لكنك إذا أهديتها إحدى كليتيك سيرتفع احتمال بقائها على قيد الحياة 50%؛ فإذا أهديتها كليتك برهنت بذلك على حبك لها. ولكن لنفترض أنك حتى لو أهديتها إحدى كليتيك، فلن يزيد احتمال بقائها على قيد الحياة عن 50%، ففي هذه الحالة إذا منحتها كليتك، برهنت على درجة عالية جدًّا من حبك لها. كلما كانت أخطار النتيجة أكبر، اقتضت انفعاليًا وحبًا أكبر لاقحام الذات في لجج الأخطار. تدل هذه الحالة على أنّ الإنسان إذا بلغ مرتبة رفيعة جدًّا من الحب، سيكون مستعدًّا لاقحام الأخطار المهولة. بيد أن كريكغارد لا يرى الانفعال والشوق ضروريًا لتقبّل الخطر وحسب، وإنما يرى تقبّل الأخطار بدوره ضروريًا للانفعال والعاطفة. ولا ندري بالضبط لماذا يعتقد كريكغارد بضرورة الأخطار للانفعال. ربما شعر أن أعلى درجات الانفعال الحقيقي، لا تكون واقعية إلا إذا تجلّت، وتجلي أعظم الانفعالات والعواطف يستلزم تقبل أعظم الأخطار.

- الدليل الثاني على لامعقولية العاطفة الدينية، هو دفع أثمان باهظة لأشياء تبدو بسيطة جدًّا، أو قل التضحية أو الصبر على الألم والعذاب. فالتحمّس للصبر على ألم أعتى، دليل عاطفة، وانفعال أشد.

وهنا أيضاً يبدو كريغارد منشداً إلى فكرة أن العاطفة والانفعال إذا كان واقعيين، فلا بد أن يتمظهرها في الصبر على آلام أشد. فالألم الذي يحتمله الإنسان في سيره وسلوكه الديني يتضاعف عندما تكون غايات هذا السلوك غير محتملة، أو قل إنها غير معقولة. يُسْتَشْفَى من هذا أن فيلسوفنا الوجودي، نظر بمنتهى الجدية لفكرة أن كل ما يستحصل بثمن بخس، لا بد أن تكون قيمته ضئيلة. ويستنتج من هذا؛ بما أن الدين يتطلب أعظم احترام وتبجيل لذا ينبغي اكتسابه بأبهط الأثمان وأصخمها. وهو يكتب قائلاً: "الفتاة الشابة التي بأسرها الحب حفاً، لا يخطر ببالها أنها أصابت سعادتها بثمن باهظ، وإنما تفكر أنها لم تصبها بالثمن الكافي".

النتيجة المنطقية لهذا الأسلوب من التفكير هو الرياضة المفرطة. كلما تحمّل المرء آلاماً أعسر في حياته الدينية، يكون قد أفصح عن كمّ أوفر من انفعالاته وعواطفه. وإذا ازداد احتمال أن لا يتقبل هذا السلوك إزداد الخطر وتضاعف الانفعال.

يرفض كريغارد حياة الرهينة بكل صراحة. والظاهر أن سبب رفضه هو شعوره أن الانهماك في الطقوس والشعائر يبعد المخلوق عن الخالق. ومع ذلك لا نجد في تصورات كريغارد الدينية ما يدين الرياضة الجزافية. بل هي مباركة في نسقه الفكري باعتبارها مظهراً للانفعال، والحرارة الدينية.

- أما الدليل الثالث؛ فهو الإرادة، والتي يرسم لها وظيفتين:
- الأولى؛ على الإنسان الذي يرى سعادته الأبدية خيره الأعلى، أن يستخدم إرادته لتخفيف حدّة الملمات الدنيوية إلى الحد الذي يستطيع معه غض النظر عنها من أجل سعادته الأبدية. بعبارة أخرى؛ على الإنسان أن يستعدّ للتضحية والإيثار.

- أما الوظيفة الثانية والأهم للإرادة؛ فهي أن معتقدات الإنسان وقناعاته يجب أن تكون ممارسات إرادية بحد ذاتها.

من المبررات التي جعلت كريغارد يعتبر اللامعقولية (أو اللايقينية الآفاقية على الأقل) ضرورية للاعتقاد الديني، هو أنّه لو توفرت شواهد كافية لصالح معتقد ديني فسيعتقد به الإنسان تلقائياً. ولن يحتاج إلى استعمال الإرادة. فالإرادة لا تستخدم إلا للانتصار على ميل طبيعي من أجل الإيمان لا توجد لصالحه إلا شواهد قليلة جداً.

إنّ الانشداد العاطفي إلى العقيدة لا يحصل إلا بالعزم والإرادة. فإذا تكوّن الاعتقاد بصورة طبيعية، لن يتسنى الإيمان به بانفعال وحرارة عاطفية، أو أن رؤية كريغارد تبدو هكذا على أقل تقدير.

يتبع...